الدور الاقتصادي والثقافـــي لليبيين في الســـودان الغربي والأوسط خلال القرون الوسطى والحديثة

د . عاشـــــور محمد سعيد أبوخريص ـ كلية التربية جادو ـ جامعة نالوت

المُلخّـــــــص

لقد أظهر تدفــق التجارة بين طرابلس وفزان وغدامس وباقي مناطق ليبيا وبين السودان الأوسط والغربي في القرون الوسطى، والحديثة، حقيقة هامة أن الصحراء الكبرى لم تكن حاجزاً في يوم من الأيام بين شمال الصحراء وجنوبها، فقد تسربت عبرها بعض القبائل والعائلات الليبية، واستوطنوا بالسودان الأوسط، والغربي، واشتغلوا بالتجارة وساعدوا التجار والعلماء، والفقها في نشر الدين الإسلام والحضارة العربية الإسلامية، فكان التجار ينقلون بضائع الشمال اِلي الجنوب وبالعكس عبر طرق ومسالك صحراوية، ومن خلال هذا التواجد تمكنوا من التغلغل في هذه المدن وأصبحوا أهل الراي، ووصلوا في بعض الممالك اِلى سدة الحكم، أمثال منسا علي الذي أسس إمبراطورية سنغي الإسلامية.

Abstract

The Flow of trade between Tripoli Fezzan and Ghadamis has appeared and between the regions of Libya and between central and western Sudan in the middle and modern Ages the most important fact that the Sahara Desert was not obstacle in one day between the north of Sahara and its south some Libyan and families had leaked through it they settled in western and central Sudan they worked in commerce and helped meachants jurists and scholars in spreading the religion of Islam and the Islamic and Arabic civilization. The merchants were transfering the goods from the north into the south and vice through dedert. Ways and baths through this presence they were able to penetrate these cities and became beoble of opinion in some

المقدمـــــة :

إن أغلب المصادر التاريخية تشير إلى وجود علاقات تجارية بين مناطق الشمال الأفريقي وبين مناطق السودان الأوسط والغربي، ومن المؤكد أن الصحراء لم تشكل حاجزاً بين شمال الصحراء وجنوبها، فقد كانت حركة تجار طرابلس وغدامس وباقي مدن ليبيا وكذلك مدن الشمال الأفريقي وبين ممالك السودان الغربي والأوسط نشطة جدا، فقد أوضحت الدلائل أن العلاقات التجارية واكبتها علاقات ثقافية ودينية.

لقد كان تجار طرابلس، وغدامس، وفزان، من أكثر التجار ترددا على مدينة تمبكتو، حيث يجلبون السلع من بلادهم اليها، ثم توزع السلع في أقاليم مملكة مالي، وهناك تجار يصلون حتى أقاليم الكانم، والبرنو، في تشاد، ومن هذه السلع المنسوجات والأحذية والملح، ويتم مقايضتها بالذهب والصمغ وريش النعام، كما كان تجار التكرور على اتصال دائم بجبل نفوسة، يحملون اليها ومنها البضائع.

وكان لهجرات البربر أيضا أثر عظيم في نشر الإسلام وخصوصاً في السودان الغربي، حيث كان لغارات الهيلاليين سببا في هجرة قبائل كثيرة من البربر الى مناطق الصحراء، ثم توغلوا نحو مناطق السنغال والنيجر، ومن هذه القبائل هراوة، ولواته، ونفزاوة، كما كان للطوارق وأولاد سليمان، والتبو أيضا دور كبير في نشر الإسلام وتعزيز الوجود العربي الإسلامي في التجارة وتوطيد العلاقات بين الأهالي، حتى وصلوا اِلي سدة الحكم في بعض المناطق.

مشكلة البحث:

تتحقق مشكلة البحث في محاولة الإجابة على التساؤل الآتي :

هل كان لليبيين دوراً واضحا ، في الاتصال بمناطق السودان الغربي والأوسط الواقع جنوب الصحراء الكبرى ؟

فكل المصادر والمراجع لم تتناول دور الليبيين في التجارة بين الشمال والجنوب وكذلك القبائل في نشر الإسلام والحضارة العربية الاسلامية الا بإشارة قليلة وعابرة. **ويمكن طرح التساؤلات** الأتية. هل كان للقبائل الليبية والتجار دور بارز في نشر الإسلام، وكيف انتقلت هذه القبائل الى جنوب الصحراء؟ هل اندمج الليبيون تجار وقبائل في تلك المجتمعات الأفريقية، ما هي المدن التي استقروا بها أو تعاملوا معهم بالتجارة؟ هل استطاعت هذه القبائل والتجار أن تكون ثقل سياسياً واجتماًعياً بين سكان السودان العربي؟

هدف البحث:

تأتي أهمية هذه الدراسة النظرية لأثبات حقيقة التواجد الليبي في هذه المناطق، قبائل، وتجار، ورداً على المشككين في هذا الدور.

1 ـ التعريف بالنشاط الاقتصادي والثقافي والديني بين المناطق الليبية، وبين جنوب الصحراء الكبرى بالســـودان الأوسط والغربي

2 ـ مدى مساهمة التجار والقبائل الليبية في نشر الإســـلامي والثقافة الإسلامية، وتعريف الأجيال القادمة والى القارئ العربي بهذه المعلومات،

3- ثراء المكتبات بتاريخ الليبيين ومساهمتهم في نشر الإسلام بهذه المناطق.
وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التاريخي من خلال تتبع الاحداث وتحليلها.

التبادل التجاري والثقافي بين ليبيا وجنوب الصحراء الكبرى

لم تشكل الصحراء الكبرى عائقا منذ القدم أمام تواصل الشمال بالجنوب، بل حدثت عدة محاولات نذكر منها محاولة عدد من الشبان النسامونيين (Nasamons) الذين كانوا يقطنون مناطق برقة بليبيا من عبور الصحراء والوصول الي نهر النيجر(1).

وقد اثبت هيرودوت مسار رحلة هذه المجموعة المدفوعة برغبة المغامرة وحب الاكتشاف، حيث اختار النسامونيون بالقرعة خمسة من شبابهم وارتحلوا عبر الصحراء في اتجاه الغرب، واجتازوا المناطق الصحراوية الى أن وصلوا إلى سهل يكثر فيه النخيل فأخذوا في التقاط ثماره، حيث تعرض لهم رجال من الأقزام، ونقلوهم كأسرى إلى مدينة تقع الى جوار نهر كبير يجري من الغرب الى الشرق يعتقد أنه نهر النيجر(2)

إن هذه المغامرة تؤكد وجود تواصل بين ليبيا ومناطق ما وراء الصحراء، فالإنسان في ليبيا منذ القدم لم يتعامل مع الصحراء على أساس أنها عالم مجهول بل إن الآثار والنقوش الصخرية تؤكد وجود نشاط بشري اخترقها في العصور القديمة. (3)

فوجود قبائل الجرامنت بفــزان الليبية وسيطرتها منذ القدم، حتى الفتح الإسلامي على طرق التجارية ومع شعوب مناطق ما وراء الصحراء الكبرى، يؤكد وجود علاقة وثيقة بين ليبيا ومناطق جنوب غرب الصحراء، وهو حلقة الوصل بين البحر المتوسط والسودان الغربي، فالنقوش المحفورة على الصخور، وطرق العربات التي تجرها أربعة خيول في وسط الصحراء والتي كانوا يطاردون بها أهل الكهوف من الاحباش الذين كانوا يسكنون جبال تبستي، وما أورده هيرودوت عن الجرامنت، يؤكد تلك الصلات بين الجرامنت وسكان المناطق الأفريقية فيما وراء الصحراء(4).

كما أن استيراد العاج والجلود من قبل الرومان من مناطق فزان، مع أن هذه السلع لا تشتهر بها فزان وإنما تأتي من التجارة مع مناطق ما وراء الصحراء، وهو دليل آخر على تأكيد الصلات بين ليبيا وما وراء الصحراء.

وقد تعامل تجّــار الشمال الأفريقي بصفة عامة بالذهب ، والرقيق والعطور، وريش النعام وجــوز الكولا، والجلود، والعاج، وهو ما ينقلونه التجار من الجنوب والشمال، وبالمقابل وحمل التجار إلى الجنوب الملابس والمنسوجات والورق والسيوف أما أهم سلعة كانوا يتعاملون فيها هي الملح(5). .

وبرز التجار الليبيون في كل من طرابلس، وغدامس وأوجله، وفزان وجبل نفوسة وتمتعوا بعلاقات ممتازة مع مدن بلاد ما وراء الصحراء، واحتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة في أغلب مدن السودان الغربي والاوسط وخاصة في تنبكتو نتيجة للدور التجاري الذي قامت به تلك المدينة وبخاصة الجالية الغدامسية حيث تمتعت بنفوذ كبير فيها، حتى أصبح لهم ركن خاص بهذه المدينة، وشغل أفرادها مناصب إدارية عديدة، ومن التجار الذين ارتادوا أغست من ليبيا (أبورستم النفوس) من جبل نفوسة (6).

ونظرا لأهمية تجار الشمال الأفريقي من العرب والبربر فقد تمتعوا بكثير من الامتيازات والضمانات، ومنها إذا ما توفي أحد التجار أو أحد أفراد تلك الجالية فكل ممتلكاته تكون تحت الضمان حتى يرجع الإرث إلى أهله، وكذلك إذا تعرض أحد التجار إلى ظلم حكام الأقاليم، إنه يستطيع أن يشتكي مباشرة للسلطان، وهذا ما جعل حكام الأقاليم يحاولون تقديم كل العون والمساعدة لأولئك التجار، ومن ذلك قصة التاجر أبو حفص الذي أشتكى إلى الملك أمام عامة الناس من جور أحد حكامه، واستطاع ذلك التاجر أن يسترد أمواله، وقام الملك بعزل ذلك الحاكم في حينه (7).

وبالإضافة إلى تلك الامتيازات فهناك من التجار الليبيين من أستطاع أن يعقد الصفقات التجارية في بلاط الملك نفسه، من ذلك ما قام به تاجر يدعى عبد الوسيع المصراتي من الدخول على السلطان الأسكيا محمد لشراء عدد من الرقيق الذين جلبوهم من أحد الأقاليم ، وحتى قبل أن يتم عرض أولئك العبيد في الأسواق، ونتج عن هذا اختلاط التجار بأهالي تلك البلاد أن حدث تزاوج مع العديد من الأسر المحلية، ومن الأدلة على المكانة العالية التي وصل اليها تجار الشـــمال الافريقي الذين عاشوا في تلك المنطقة من وقوع تصاهـــر بينهم وبين حكام، وأهالي البلاد من ذلك قيام أحد الأمراء بتزويج اثنتين من بناته لأخوين تاجرين(8).

هذا ولو تتبعنا التأثير الليبي في جنوب الصحراء، نجد أن هناك العديد من القبائل الليبية انتقلت من ليبيا إلى مناطق جنوب الصحراء منذ فترة طويلة ، وقد عملت على نشر الدين الاسلامي في ربوع تلك المناطق، وقد زادت هيبتها في أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر ميلادي) ، وذلك في فترة حكم منسي على 1464- 1493م، فقد اقتسمت القبائل الخمسة ومنهم قبيلة أولاد غانم ، وقبيلة أولاد يعقوب، وقبيلة أفوغاس ، ومازال جزاء منها في غدامس، وقبيلة المحافيظ حيث يعود نسبها إلى برقة، وقبيلة كلنتصر، فيما بينهم بعض المناطق، وبالتالي هيمنت على المنطقة ، وكان لكل قبيلة رئيس يسير شؤونها(9)، وسياتي ذكرها من ضمن قبائل أولاد أسليمان.

كما نجد من بين الأسر التي نزحت إلى جنوب الصحراء بالسودان الغربي أسرة (ضياء) التي رحلت من طرابلس الغرب إلي السودان الغربي، (10) ويرجـــح وصولها أثناء دولة غانا الوثنية، حيث اكتسب أبنائها مكانة رفيعة لدى قبائل سنغي ، هذا وقد أخذت هذه الأسرة على عاتقها نشر الإسلام في تلك المناطق، وقد أثرت هذه الاسرة بشكل أو بأخر في المنطقة حتى اِنه كان من أبناها قيادات أسسوا إمبراطورية كبيرة مترامية الأطراف أمثال منسا علي مؤسس إمبراطورية سنغي الإسلامية التي قادها إلى المجد والرقي.

لقد كان لهذه الحركة التجارية الضخمة، التي قامت بين طرابلس وغدامس وفزان، من جهة وبلاد السودان الغربي والاوسط من جهة أخرى، كان عليها أن تسلك عدة طرق، ومسالك مميزة خاصة بها، من حيث قصر الطرق وسهولة العبور، والأمن والماء وأهم هذه الطرق هي:

1 ـ طريق تبدأ من ساحل البحر المتوسط عند تونس، فتسير للجنوب مارة بغدامس وغات وأجادس، ثم تتجه منه اِلى الغرب مارة بتكدا إلى جاو على نهر النيجر واِلى تنبكتو (11).

2- طريق من تادمكة- القيروان مروراً بورقلة، ومن تادمكة الى طرابلس مروراً بغدامس.

3 ـ طريق غدامس ـ تادمكة ـ مالي.

4 ـ طريق جاو تادمكة ـ فزان

5 ـ شبكة من الطرق تنطلق من طرابلس وتسير بواحة مرزق وتعبر الجانب الشمالي من جبال تبستي إلى إقليم بحيرة تشاد، ومنها تتحرك شرقاً وغرباً داخل أراضي السودان(12).

6 ـ طريق بنغازي إلى اِجدابيا ثم أوجلة ثم الكفرة إلى الفاشر في شرق السودان (13).

وهناك طرق أخرى تأتي من المغرب الأقصى، والجزائر لنفس غرض التجارة والتواصل ونشر الدين الإسلامي بالسودان الأوسط والغربي، وساهموا بشكل كبير في التبادل التجاري، والثقافي والديني مع أهالي هذه المناطق.

ويرى الباحث أن أغلب هذه الطرق والمساك، قد ورد ذكرها في أغلب كتب الرحالة والمؤرخين، وهو ما يؤكد صحة ما ذكره المؤرخون على العلاقة التجارية والثقافية التي أسهمت في نشر الإسلام والعلوم الإسلامية بين سكان مناطق السودان الغربي والأوسط.

بعض القبائل الليبية التي انتقلت الى جنوب الصحراء:

قبائل أولاد سليمان : وهي فـــرع من قبائل البرابيش، والمتمركزة في كل من سرت وفزان ، وقد انتقل جزءا منها إلى الجنوب الصحراء، إما لغرض السيطرة الاقتصادية أو لنشر الإسلام أو كلاهما معا، حيث كان لهذه القبائل ثقل سياسي واجتماعي في مناطق جنوب الصحراء، يحسب لها ألف حساب فكانوا كثيرا ما يقومون بتأديب القبائل الخارجة عن طاعتهم، مثل الرقيبات. وكذلك من القبائل الليبية المتوطنة هناك **قبيلة أولاد غانم** : وهم أحد بطون البرابيش، وكذلك قبيلة أولاد يعقوب المنتشرة شمال مالي وموريتانيا (14). فضلا عن **قبيلة** أفوغاس المتوطنة جزء منها الى الان في مدينة غدامس، ثم قبيلة المحافيظ ، التي يعود نسبها الى برقة بليبيا وكذلك قبيلة كلنتصر وغيرها من القبائل(15).

ويذكر عبد المولى الحريري أن من أكثر الهجرات الإسلامية فعالية وتأثيراً، تلك التي كانت تتوغل في القارة الأفريقية عن طريق المسالك الصحراوية القادمة من ليبيا، وأهم هذه الهجرات هجرات أولاد سليمان وأدوارها الفاعلة والمؤثرة في انتشار الفكر الإسلامي التي انطلقت من المغرب العربي (16). هذا ويرجح الباحث بقاء جزاء من هذه القبائل الليبية بمناطق مالي والنيجر وكذلك تشاد، الى يومنا هذا وأصبحوا من ضمن مكون تلك البلدان الأفريقية.

قبائل الطـــــــــوارق: تقيـــم هذه القبائل بالجنوب الليبـــي في اقليم فـــزان، ويسمّون أحيانا بالملثمين نسبة لانتشار اللثام بينهم، وقد استقرت هذه القبائل منذ عصـــور بعيدة عند الحدود الشمالية لإقليم برنو (17) ، ويؤكد ابن خلكان بقوله : (إنهم أصحاب إبل وخيل ويسكنون الصحراء الجنوبية)، والطوارق ينسبون أنفسهم للعرب ويقولون إنهم من حمير ابن سبأ ، وقد قدموا إلى شمال أفريقيا بعد خراب سد مأرب (18)، واعتنق الطـــوارق الإسلام بعد مرحلة الفتح العسكري، حيث وصفوا بأنهم على دين الإسلام وأتباع السنة (19)، وحلت اللغة العربية تدريجيا محل لغتهم القديمة ، وكان الإسلام الطوارق أثر كبير في قيام نشاط توسعي نحو الجنوب لنشر الإسلام، ومن أبرز الهجرات التي أسهم بها الطوارق في نشر الإسلام في مناطق بحيرة تشاد ، في بداية القرن الثالث الهجري . التاسع الميلادي، حيث استقر الطوارق في منطقة بحيرة تشاد، واختلطوا بالسكان المحليين وقد أدى هذا الاختلاط الي انتشار الإسلام تدريجيا بين السكان ، ومما يؤكد هجرة الطوارق في هذه الفترة ارتباطها

بظهور الأسرة الماغومية ، وتأسيس دولة الكانم والبرنو على اعتبار أن هذه الأسرة تنتمي الى نبلاء الطوارق (20).

ويرى الباحث أن قبائل الطوارق الليبية التي تقطن في جنوب فزان ، مع بقية قبائل مكون فزان، كانت قبائل نشطة في التعامل التجاري والسياسي مع جنوب الصحراء الكبرى ، وخاصة تشاد والنيجر ومالي، فكان لهم حضور وتأثير في قيام دولة الكانم والبرنو في بحيرة تشاد وكذلك في نشر الإسلام في تنبكتو بمالي والعديد من الامارات بسنغاي الإسلامية حيث وصل بهم التأثير إلى تولي العديد منهم مناصب سيادية كوزراء ومستشاري ورؤساء دول.

قبائل التبـــــــو: قبائل التبو هم عنصر مهم من مكون فـــزان، ومن القبائل البربرية القديمة التي سكنت منطقة الصحراء وجبال تيبستي جنوب فزان الليبية، ويطلق عليهم في بعض الأحيان (التيدا)(21)، وهم سكان شمال جبال تيبستي ، وقد تميزت حياة التبو منذ القدم بالاستقرار المؤقت في بعض أماكن جبال تيبستي ، والاتجاه جنوبا كلما قست عليهم الحياة الصحراوية ، وقد اعتنـــق التبو الإسلام بعد وصوله للمنطقة بعد حملة عقبة على كاوار عام 49 هـ / 669م (22) ، وذلك لوجود التبو بين هذا الأقاليم وبين جبال تيبستي، لقد كان للتبو دور مهم في نشر الإسلام في بلاد الكانم، حيث زادت هجرات التبو الى جنوب الصحراء الكبرى بمناطق بحيرة تشاد منذ القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، واستمرت الهجرات حتى القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

إن الوجود الليبي في تلك المناطق كان واضحا وجليا، فما شجرات النسب للأسر الليبية التي كانت متوطنة هناك مثل عائلات البليلي والغدامسي والحجري ، إلا دليل واضح على تسرب القبائل الليبية ، وكذلك العائلات الى تلك المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

ومن ذلك يمكن التساؤل عن مدى التأثير الاجتماعي والثقافي والديني لهذه القبائل على المناطق التي انتقلوا اليها في جنوب الصحراء الكبرى؟

من خلال الاطلاع على المصادر والمراجع التي تناولت تلك الحقبة التاريخية فإننا نجد هذا التأثير واضحاً جلياً، ففي مملكة غانه، مثلا ظهر تأثير التجار فيها حيث أفردت مملكة غانه في عاصمتها منطقة ، خاصة بالتجار والعلماء حتى وصل تأثيرهم إلى أن أعلن بعض الرؤساء في السودان الغربي اسلامهم ومنهم (وارجابي) حاكم التكرور على نهر السنغال (23). لقد كان التجار والدعاة من الكثرة حتى أنهم استطاعوا

تأسيس مدينة خاصة بهم جانب العاصمة الغانية (كومبي صالح) شيد بها أثنى عشرة مسجدا، وعجت المدينة بالفقهاء والأئمة والعلماء والتجار، وقد تحدث عنها البكري قائلا:ِ" غانه مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا، بها الأئمة والمؤذنون والفقهاء والعلماء، وتحيط بها الآبار العذبة منها يشربون، وعليها يزرعون الخضروات" (24). كما يقول البكري أضا " عمل ملوك غانه على تولية المسلمون أرفع الناصب في الدولة، فقد كان منهم وزراء وأمراء جيوش، وحراس وأمناء صناديق ومترجمون للملك"(25)

الجالية الغدامســـــــية:

لقد كان للجالية الغدامسية أهمية كبرى في جنوب الصحراء الليبية ، وخاصة مدينة تنبكتو، ويرجع ذلك الى الأثر التجاري المهم ونشاط هذه الجالية في المجال التجاري، وقد كان أفراد تلك الجالية من الكثرة بحيث شيدوا حيا خاصا بهم في تنبكتو ويعد ذلك الحي من أرقى الأحياء بها، ومما يؤكد أهميته الاستراتيجية أنه عند وصول الحملة المراكشية الى منطقة السودان الغربي، في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، اختارت حي الغدامسية لإقامة قصبة الحكم فيه، لما يمتاز به من موقع ممتاز وبنائه المنسق واستراتيجيته التي لا تعدلها قيمة. ويقول السعدي أنه عندما توفي فياض الغدامسي خرج للصلاة عليه أشهر فقهاء تنبكتو(26)

والذي جعل حي الغدامسية بهذه الأهمية كان مرده إلى مكانة وثراء التجار الليبيين بالنسبة للسكان الأصليين، وهذا كان طبيعي لما تمثله التجارة في حياتهم من قيمة، وبهذا زادت ثرواتهم وعرفوا لدى الخاصة والعامة بثراء، فلم تقتصر تجارتهم على مدينة تنبكتو فحسب ، بل تجاوزوها إلى المناطق الأخرى فتعاملوا مع أسواق مدن جاو وجني وغيرها من المناطق بالسودان الغربي والأوسط.

ومن وجهاء وأعيان مدينة تنبكتو نجد علي بن سالم بن عبيدة المصراتي، وهذا يؤكد مكانة هذه الجالية المرموقة في تنبكتو في المجالين الاقتصادي والديني، فمنصب الامامة للجامع الكبير مثلا كان يسند في كثير من الأحيان الى علماء من شمال افريقيا نذكر منهم على سبيل المثال: سيدي عبد الرحمن البليالي الغدامسي ، وأبا القاسم التواتي، ومنصور الفزاني، وسيدي الجازولي، وكذلك منصب الإمامة والقضاء تولاها عدد من علماء شمال افريقيا وهي مناصب ذات أهمية ؛ لأن القاضي هو السلطان وبيده الحل والعقد(27)

وخير دليل على صحة التواجـــد الليبي بالسودان الغربي، نجد أن بعض الأسر قد استوطنت بالسودان الغربي ، فمثلا أسرة ضياء التي ينحدر منها الملك منسا علي ملك سنغي ، وشجرة نسب عائلة البليلي الغدامسي، والتي استقروا بمدينة تمبكتو حوالي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، وكذلك أسرة الحاج محمد سليمان بن عب، التي استقرت بالسودان الغربي منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وشجرة عب بن مخلوف هي أيضا موغلة في القدم وهذا دليل على عمق الصلات بين أبناء ليبيا والسودان الغربي، فقد ورد أن الذين أسسوا مدينة جاو هم دعاة الى الدين الإسلامي من طرابلس الغرب، فنضم إليهم السكان الأصليين وجعلوهم حكاما عليهم.(28)

أما بخصوص العلاقات بين طرابلس ومنطقة بحيرة تشاد فهي قديمة بحكم موقع منطقة البحيرة المتاخم لطرابلس من الجهة الجنوبية، وقد ورد ذكر بعض السفارات بين مملكة الكانم والبرنو بين طرابلس خاصة في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وهو ما يدل على قوة العلاقات بين الطرفين ولكن المصادر والمراجع لم تحدثنا بشـــيء من التفصيل عن هذه السفارات، حيث كانت أول سفارة يبعث بها حكام الكانم إلى طرابلس في عهد الماى إدريس بن علي سنة 908- 933 هـ 1502 - 1526م، هـــذا بالرغم من أن أحـــوال طرابلس في هذه الفترة غير مستقرة، وتكالب المستعمرون عليها أمثال الاسبان، وفرسان القديس يوحنا، إلى وصول الأتراك سنة 1551م، وكان يحكمها خلال هذه الفترة بعض الأسر المحلية أو بعض الشخصيات التي يثق السكان في صلاحها، حيث حكم المدينة في هذه الفترة أبوبكر بن عبدالله وهو أحد أعيان المدينة الزاهدين (29)، ومن المرجّـــح أن هذه السفارة وصلت الى تاجوراء التي انتقل اليها النشاط التجاري والإداري وملاذا للســـكان الفارين من منطقة الاحتلال الإسباني.

بعض من العلماء الليبيين الذين شاركوا في نشر الدين والثقافة والعمارة الإسلامية في السودان الغربي :

من الأعـــلام الليبيين الذي كان لهم علاقات ومراسلات مع السودان الغربـــي

ـ أفلـــح بن عبد الوهـــاب : من أعلام جبل نفوسة وحاكمها ومحل استشارة لدى أهل الجبل ، حيث يتميز بأخلاق حسنة مما جعله محل ثقة لديهم ، وقد حدث في عهده رخاء اقتصادي ملحوظ ، وارتبط أفلح بعلاقات ممتازة مع أغلب ملوك السودان الغربي وخاصة ملكي (صوصو)، (وكوكو) فقد كانت بينه وبينهم وفود تأييد وصدقة وتبادل الهدايا بينهم تعبيرا عن المودة والإخاء (30) ، وهو ما يوضّح بأن العلاقات

الليبية الأفريقية (الســـودان الغربي) كان في وئام وحسن الجوار، فلقد كان أفلح على درجة كبيرة من العلم ، حيث برع في عدة علوم منها علم الرياضيات والتنجيم، وله عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة تحتوي على الحكمة والإرشاد والنصح، وذكره الباروني في كتاب : الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الاباضية ، بقوله " وله ... عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة جامعة لنصائح ومواعظ وحكم، دلت على ماله في الفضل والكمال والعدل من طول الباع وفي غـزارة العلم وقوة الادراك"(31)، كما كان الأمير أفلح قد بـــرز في علمي البلاغة والأدب ، وله عدة قصائد تجمع بين الحكمة والنصح والإرشاد وترغب في طلب العلم ، وهذا يدل على أنه تربى في بيت علم وصلاح.

لقد كان جبل نفوسة في عهد الأمير أفلح على علاقة جيدة مع تجار منطقة السودان الغربي، حيث مكث في حكم جبل نفوسة حوالي خمسين سنة من العمل الدؤوب إلى أن وافته المنية ، ومما يدل على أن ليبيا كانت على علاقة جيد مع السودان الغربي ، وأن جبل نفوسة كان أحد نقاط العبور لحجاج بلاد التكرور، كما يتضح من ذلك أن الشـــيخ أبا عمر أحد حكّام جبل نفوسة قام باستضافة الحجاج القادمين إليه من بلاد التكرور، وتزويدهم بما يحتاجون إليه في سفرهم دون مقابل بالرغم من تقديمهم مبلغ أربعمائة دينار فلم يأخذ منهم شيء (32).

كما نجد من الأعـــلام الليبيين الذين أدوا دوراً علمياً بارزاً في منطقة السودان الغربي في القرن الثاني عشـــر الميلادي ، وبالتحديد في عام 575 هـ / 1179م ـ **الشيخ أبا الحسن علي بن يخلف النفوســـي** ، والذي يرجع أصله إلى جبل نفوسة، حيث ذهب إلى تلك المناطق لغرض التجارة ونشر الإسلام والعلم هنالك ، فعرف بين السكان بحسن خلقه وغزارة علمه ، وقد سمع بتقواه وصلاحه سلطان مالي ، فأحضره إليه، وأختبره وأسلم على يديه هو ورعيته ، ومن ثم استخلصه لنفســـه وأصبح يشاوره في كل أموره وقد بلغ عند السلطان المالي منزلة لم يبلغها حتى وزراؤه، ومن هنا بدأ الإسلام ينتشر بين الرعية وتجاوز مقاطعة مالـــي إلى المناطق الأخرى فاستضاءت المنطقة بنور الإسلام (33).

ـ **أبو عبـيدة الجناونـــي** : هو أحد الاعلام الليبيين من سكان جبل نفوسة ، منطقة جناون ، حيث كان يتحدث عدة لغات من بينها اللغة الكانمية ، وهذا يدل على أن الاتصالات والعلاقات بين شمال الصحراء وجنوبها على درجة ممتازة.

ومن الأعـــلام الليبيين الذين أدوْا دورا في المنطقـــة المهندس :

ـــ **عبد الله الكومي الموحدي الغدامسي** ، الذي ذاع صيته في مجال فن العمارة ،

فعند رجوع ملك مالي منسا موسى من الحـــج مـــر بمدينة غدامس واصطحب معه المهندس عبد الله الكومي إلى مالي(34)، حيث شارك في بناء مسجد تنبكتو مع المهندس أبى إسحاق الساحلي وفي بناء العديد من المساجد ، حيث أضفي عليها لمسات معمارية أندلسية.

ومن أعـــــلام القرن الرابع الهجـــــري (العاشر الميـــــــلادي)، نجد ـــ **أبو يحيى الفرسطائـــي:** حيث كان له دوراً بارزاً في نشـــر الإسلام والثقافة العربية، عندما ارتحل من جبل نفوسة الى بلاد السودان الغربي ، حيث التقى بأحد ملوكها وهو أحد ملوك غانه الوثنية، والذي أسلم على يديه بعد أن ناقشه كثيراً في أمور الدين الإسلامي الحنيف(35).

ومن أعـــلام القرن التاســـــع الهجري (الخامس عشـــــر الميلادي) ـــ **يحيى بن محمّد بن عبد الرحمن الخطاب** ، حيث ارتحلوا أجداده منذ فترة طويلة من ليبيا ، إما لغرض التجارة أو لطلب العلم في تنيكتو والمناطق المجاورة لها، وعـــرف بيتهم بأنه بيت العلم والصلاح فظهر منهم العديد من الأقطاب الذين عملوا على نشر العلم بتلك المناطق، وخاصة في تنبكتو حيث توجد إجازتان منحهما يحيى الخطاب الى تلميذين من أبناء تنبكتو توضحان أنهما كانا مدرسين في تلك البقاع ، وأن الأثر الليبي كان راسخا(36).

ولم يكن التأثير الليبيين في السودان الغربي في مجال العلم فقط ، بل كان تأثيرهم حتى في مجال الأدب. حيث كان أبو علي بن الحسين، علم من أعلام الأدب في مدينة تنبكتو، وهو من أبناء القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، له العديد من المؤلفات والقصائد في الأدب(37).

النتائـــــج

من خلال هذا البحث يتضح لنا أن المجتمع الليبي لم يكن مجتمعا سلبيا، أو متكاسل بل إنه شارك في التواصل مع جيرانه جنوب الصحراء، وتعامل معهم بالتجارة وشارك في نشر الدين الإسلامي والعلوم والثقافة الإسلامية وشارك في بناء المساجد والمدارس، حيث قام العلماء بتأليف الكتب، ونشروا العلم بين أبناء هذه المناطق.

كان للقبائل الليبية دور بارز في إسلام مناطق السودان الغربي والأوسط، وشاركوا سكان هذه المناطق في الحكم فمنهم من وصل إلى سدة الحكم ومنهم أصبحوا وزراء ومستشارين لبعض الممالك، كغانا ومالي، والكانم، والبرنو، وغيرها.

يتضح لنا أن الطرق والمسالك التي تسلكها القوافل التجارية وغيرهم، هي مسالك أمنة أكثر من غيرها، وكذلك تعتبر قريبة من بعضها وتتوفر فيها المياه اللازمة للشرب لهم ولدوابهم، ووهوما شجع التجار والفقهاء والعلماء بالانتقال عبرها.

الخاتمـــة:

من خلال الاطلاع على المصادر والمراجع التي تناولت صلة الشمال الأفريقي بجنوب الصحراء الكبرى، أن التجارة مع السوان الغربي والأوسط، كانت منذ زمن بعيد، حيث لم تكن الصحراء في يوم من الأيام عائقاً أمام التواصل التجاري، وذلك لحاجات سكان جنوب الصحراء لمنتجات الشمال الأفريقي الضرورية كالملح، والمنسوجات، والورق، والسيوف، والخيول، وكذلك تصدير منتجات الجنوب إلى الشمال كالذهب، والعاج، وريش النعام، والرقيق، وغيرها....

لقد زودتنا العديد من المصادر والمراجع بأسماء القبائل والعائلات التي انتقلت من الشمال إلى الجنوب، ومنها قبائل أولاد أسليمان، وقبائل من الطوارق، وقبائل التبو، وكثيرا من العائلات من غدامس، وطرابلس، وفزان، وذلك لعدة أغراض منها المساهمة في نشر الإسلام بين سكان السودان الغربي والاوسط، وكذلك لغرض، أما للتجارة أو لبسط النفوذ في تلك المناطق، وقد استطاعت أغلب تلك القبائل إلى بسط نفوذها ووصول بعض أفرادها لتكوين إمبراطورية، أمثال منسا علي مؤسس إمبراطورية سنغي الإسلامية ، كما ساهموا في بناء المساجد، والمدارس وبناء عدة مدن خاصة بهم مثل كومي صالح، وجزاء من مدينة تنبكتو، وقد وصل انتشارهم إلى بحيرة تشاد وإلي مالي والنيجرِ.

إن انتقال القبائل والتجار الي الجنوب، لم يخلوا من انتقال الفقهاء والمهندسين والعلماء والمثقفين والادباء إلى الجنوب للمشاركة في نشر الإسلام والعلم والثقافة بين أبناء وسكان السودان الغربي والاوسط، حيث كان للعلماء، والفقهاء الليبيين دور بارز في تنبكتو، ومالي وسنغاي وكذلك في الكانم، والبرنو في بحيرة تشاد، فقد كان منهم أئمة المساجد ومستشارين ووزراء، مثل مملكة غانا الوثنية، ومالي والكانم، وغيرها.

هذا وقد سلكت تلك الانتقالات التجارية أو القبلية، والعلمية الى الجنوب عدة طرق ومسالك تربط بين الشمال والجنوب، تمر عبر بعدة مدن ليبية كغدامس وفزان وغات، وأوجله، هذا فيما يخص الجانب الليبي، أما الجزائر والمغرب فلها طرق ومسالك تمر عبرها إلى مدن جنوب الصحراء الكبرى.

الهوامـــــــــــش:

1- يونس، محمد المبروك، تاريخ التطور السياسي للعلاقات الليبية الافريقية، 1952- 1977، الشركة العامة والطباعة، الزاوية، 1991، ط2، ص13.
2- محمد يونس، دور ليبيا في مسار العلاقات العربية الافريقية، 1969- 1977م، الشركة العامة للورق والطباعة، الزاوية، 1994، ص19.
3- محمد يونس، تاريخ التطور السياسي للعلاقات الليبية الافريقية، ص13.
4- محمد يونس، دور ليبيا في مسار العلاقات، ص19.
5 - أمحمد مصباح الأحمر، أفريقيا والعرب، وحدة الكتاب شعبة التثقيف والاعلام والتعبئة، طرابلس، 1428هـ، ص 178.
6 - حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في افريقيا، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963، ص99.
7 - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 688- 690.
8 - أحمد الفيتوري، ليبيا وتجارة القوافل، الإدارة العامة للآثار، طرابلس، 1972، ص251.
9 - الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، علي عبد الواحد، كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود (الرياض، 1979م)، ص 166.
10- الحسن الوزان، مصدر سابق ج2، ص162.
11- نعيم قداح، الأسس التاريخية للعلاقات الثقافية العربية الأفريقية، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، يناير 1978، العدد51، ص67.
12 - البكري، أبو عبيد الله، المسالك والممالك، تحقيق، صلاحا لدين المنجد، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1957م، ج2، 164.
13 - نجمي رجب ضياف، مدينة غات وتجار القوافل الصحراوية، دار الكتب الوطنية، بنغازين 1999من ص148.
14 - محمد سعيد القشاط، جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى، طرابلس مركز دراسات وابحاث شؤن الصحراء، 1988م، ص 57.
15 - محمد سعيد القشاط، الطوارق عرب الصحراء، ط2، طرابلس، مركز دراسات وابحاث شؤن الصحراء، مطابع أديتار، 1989م، ص 23- 24- 59- 58.
16- الحريري، عبد المولى: الإسلام وأثره على التطورات السياسية والفكرية في افريقيا جنوب الصحراء، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1989م، ص43.
17 - إبراهيم طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص32.
18 - أنو العباس شمس الدين ابن خلكان، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت، دار احياء التراث الإسلامي، 1997م، ج3، ص 476.
19 - أحمد بابير الأرواني، جواهر الحسان في اخبار السودان، تحقيق: الهادي الدالي، بنغازي، دار المكتبة الوطنية، 2001، ص 56.
20 - مفتاح يونس الرباصي، العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو، منشورات جامعة 7 أكتوبر، 2009م، ط1، ص63- 64.
21 - تعني كلمة التبو سكان الجبال نسبة الى لإقامتهم بجبال تيبستي، وتعني كلمة التيدا سكان سفح الجبل وهم فرع من التبو فضلوا الإقامة في الواحات والسفوح. انظر: فضل كلود، الثقافة الاسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية الكانم، طرابلس، كلية الدعوة الإسلامية، 1988م، ص70.
22 - حسن عيسى عبد الظاهر، العودة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1991م، ص96.
23 - البكري، مصدر سابق، ص872.
24 - المصدر نفسه، ص873.

25 ـ عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، طبعة باريس، 1964، ص 159.
26 ـ أمحمد مصباح الأحمر، أفريقيا والعرب، مرجع سابق، ص191
27ـ الهادي المبروك الدالي، مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا، دار صنين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1996، ص188.
28 ـ الهادي الدالي، مرجع نفسه، ص188- 189.
29 ـ مفتاح يونس الرباصي، العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو، منشورات جامة 7 أكتوبر، مصراته، 2009م ص118- 119.
30 ـ الباروني، سليمان عبد الله النفوسي، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الاباضية، تونس، دار أبو سلامة للطباعة والنشر، 1986، ص182-187.
31ـ الباروني المصدر نفسه، ص187.
32ـ الباروني المصدر نفسه، ص172.
33 ـ علي يحيى معمر، الأبضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية، مكتبة وهيبة، 1966، ص128 ـ 129.
43ـ بن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 1979، ج6، ص301.
35 ـ الشماخي، أبو العباس أحمد، كتاب السير، طبعة حجرية القاهرة، المطبعة البارونية، 1889م، ص456 ـ 457.
36 ـ الهادي الدالي، مرجع سابق، ص180.
37 ـ الهادي الدالي، المرجع نفسه، ص180- 181.